مقياس السيميولوجيا العامة

ماستر1 سمعي بصري

الأستاذ زياد اسماعيل

المحاضرة الأولى

1. مفهوم وإشكالية تسمية مصطلح السيميولوجيا:

السيميولوجيا كلمة يونانية مكونة من «sémeion» الذي يعني العلامة، logos، الذي يعني الخطاب، الذي نجده مستعملا في كلمات مثل sociologie علم الاجتماع ، و théologieعلم الأديان (اللاهوت)، biologie علم الأحياء، zoologie علم الحيوان...و بامتداد أكبر كلمة logos تعني العلم، هكذا يصبح تعريف السيميولوجيا على النحو التالي: "علم العلامات".[1]

اصطدم تعريف مفهوم السيميولوجيا بتعدد وجهات النظر في تحديد هوية هذا الحقل المعرفي، كونه حقل حديث النشأة تزامن ظهوره في بدايات القرن العشرين، على يد العالم الشهير فيردناند دي سوسير الذي يقول عن السيميولوجيا في كتابه؛ محاضرات في علـم اللغة:"أنها العلم الذي يدرس حياة العلامات من داخل الحياة الاجتماعية ونستطيع –إذن –أن نتصور علما يدرس حياة الرموز والدلالات المتداولة في الوسط المجتمعي،وهذا العلم يشكل جزء من علم النفس العام.ونطلق عليه مصطلح علم الدلالة (السيميولوجيا)وهو علم يفيدنا موضوعه الجهة التي تقتنص بها الدلالات والمعاني.

وما دام هذا العلم لم يوجد بعد فلا نستطيع أن نتنبأ بمصيره ،غير أننا نصرح بأن له الحق في الوجود وقد تحدد موضوعه بصفة قبلية.وليس علم اللسان إلا جزء من هذا العلم العام وسيبين لنا هذا العلم ما هو مضمون الإشارات ،وأي قوانين تتحكم فيها"[(2)] إن دي سوسير كما نرى قد تصور وجود هذا العلم وبين اشتقاقه وأصله ، كما حدد موضوعه ونادى بحقه في الوجود ووصف علاقة هذا العلم الآتي الذي لم يكن قد ولد بعد، بكل من علم النفس الذي هو الأصل الذي ينتمي إليه العلم المبشر به،وبين علم اللسان الذي سيكون جزء منه. كما بين وظيفته وأهميته في تبيان مدلولات الإشارات ومعرفة قوانينها التي تحكمها، إن دي سوسير كان يرى أن اللسان نسق من العلامات التي تعبر عن المعنى ،وهو ما يمكن أن يقارن بلغة ا لصم والبكم والطقوس الرمزية الأخرى دينية كانت أم ثقافية مادامت وسط المجتمع.

وقد تزامن هذا التبشير مع ما كان يقوله عالم آخر هو بيرس (1839-1914) من أن النشاط البشري بمجمله نشاط سيميائي.وبطبيعة الحال فإن النشاط اللساني هو نشاط سيميائي لأنه جزء من النشاط البشري.

يقول بيرس عن نفسه :" إنني وحسب علمي الرائد أو بالأحرى أول من ارتاد هذا الموضوع المتمثل في تفسير وكشف ما سميته السيميوطيقا أي نظرية الطبيعة الجوهرية والأصناف الأساسية لأي سيميوزيس محتمل .إن هذه السيميوطيقا التي يطلق عليها في موضع آخر المنطق تعرض نفسها كنظرية للدلائل وهذا ما يربطها بمفهوم السيميوزيس الذي يعد على نحو دقيق الخاصية المكونة للدلائل"[3]،أما بيير جيروفيعرف السيميولوجيا بأنها:" العلم الذي يهتم بدراسة أنظمة العلامات: اللغات، وأنظمة والإشارات والتعليمات ..."[4] وهذا التحديد يدخل اللغة تحت مفهوم السيميوطيقا.

والتحليل السيميولوجي حسب الناقد "رولان بارث" شكل من أشكال البحث الدقيق في المستويات العميقة للرسائل الإعلامية والألسنية، بحيث يلتزم فيها الباحث الحياد نحو الرسالة، والوقوف على الجوانب السيكولوجية والاجتماعية والثقافية التي من شأنها المساعدة في تدعيم التحليل، و يعرف اللغوي الدنمركي"هايمسلف لويس"التحليل السيميولوجي بأنه: مجموعة من التقنيات والخطوات المستعملة لوصف وتحليل شيء باعتبار أن له دلالة في حد ذاته وإقامة علاقات مع أطرافأخرى والتحليل السيميولوجي يغوص في مضامين الرسالة و الخطابات الإعلامية ، و يسعى لتحقيق التحلـيل النقدي فهو تحليل كيفي و استقرائي للرسالة ذو مضمون كامن و باطن

ونلحظ هنا بوضوح اختلاف العلماء في استعمال مصطلحين يطلقان على هذا العلم:السيميوطيقاوالسيميولوجيا، وهذا الاختلاف البراجماتي لا ينفي القرب الشديد بين المصطلحين،بل وترادفهما.فالسيميولوجيا إذن مرادفة للسيميوطيقا،وموضوعهما دراسة أنظمة العلامات أيا كان مصدرها لغويا أو سننيا أو مؤشريا، فلم تعد ثمة أسباب أو مبررات تجعل أحد المصطلحين يحظى بالسيادة دون الآخر. بينما يرى آخرون أنه يمكن تخصيص مصطلح السيميولوجيا بالتصور النظري،ومصطلح السيميوطيقا بالجانب الإجرائي التحليلي فتكون السيميولوجيا نظرية عامة والسيميوطيقا منهج تحليلي نقدي تطبيقي. ولهذا يستخدم المصطلح الثاني في عنونة المؤلفات التطبيقية وممن فعل ذلك غريماس وموبسان وميشيل وكوكيه.

فقد دعا دي سوسير إلى الاهتمام بالعلامة لمنطلقات لغوية وإلى ما سماه بعلم السيميولوجيا أوعلم منظومات العلامات، من خلال مفهومه للغة بوصفها منظومة

منالعلامات تعبر عن فكر ما مع تركيز دائم على العلاقات التي تربط بين الوحدات والعناصر اللغوية كما قرر دي سوسير اعتباطية العلامة اللغوية بينما تقول السيميائية باعتباطية العلامة مما يمنح الدوال مدلولات لا نهائية"[5]، يبدو جليا من خلال هذه النزعات التعريفية " أن السيميولوجيا كغيرها من العلوم الناشئة تعرضت إلى محنة المصطلح، وتنوعت استخداماتها، فهي السيميولوجيا عند دي سوسير، وهي السيميائية عند بيرس، وحتى علم الدلالة أحيانا"[6].

وإذا مضينا إلى المجال العربي وجدنا قضية تسمية هذا المفهوم مطروحة بحدة، ذلك أن القارئ يواجه تباينا مصطلحيا يسقطه في الحيرة والارتباك، فإن بعض الدراسين لجئوا إلى افتراض لفظة " la sémiologie" من الحقل الفرنسي، وتعريبها عن طريق إضافة مقطع أخر الكلمة، متكون من ياء مزيدة بعد الجيم المكسورة، ثم إشباعها بمد مفتوح، لتجانس الصيغة المألوفة في تعريب أسماء العلوم شأن البيولوجيا والسوسيولوجيا، فقد آثر فريق تعريب اللفظة الإنجليزية " semiotics" عن طريق قلب كافها قافا وتائها طاء بحكم الجوار الصوتي، وطلبا للمجانسة الصوتية بين الإطباق الصوتي والاستعلاء، تم إشباعها بمد مفتوح، فجاءتتركيبة المصطلح كالأتي "سيميوطيقا".

ومال فريق ثالث إلى البحث عن مقابل للمصطلح الأجنبي بناء على تركيبه الاشتقاقي، فاقترحت مقابلات عديدة، نذكر منها علم العلامات وعلم الأدلة، وآثر باحثون آخرون البحث عن كلمة عربية أصيلة تفي بالغرض، وتؤدي المعنى المراد بالمصطلح أحسن أداء، فوجدوا ضالتهم في مادة لغوية عربية تتضمن معنى الإشارة والعلامة، وهي لا تقتربمن اللفظة الغربية في دلالتها فحسب، بل حتى في تركيبها الصوتي، هذه المادة هي السين والميم تعضدهما حروف اللين، والهمزة أحيانا، فالمادة في تقلباتها المختلفة تقوم على نواة دلاليةهي التعليموالوسم، فمادة " س م و" تدل في أحد وجوههاعلى "التسمية" والاسم كما هو معلوم يوضع للتمييز شأنه شأن العلامة، ومادة " وسم" من ضمن ما تحيل إليه هو وضع العلامات المميزة، ومنها وسم البعير بالكي ليعرف ويتميز"، وتحيل مادة " س م و" على السومة وهي العلامة، ومنها سوم الفرس، هكذا تتركب من هذه المادة صيغ خمس هي السيمة والسيمى والسيماء والسيمياء، تتضمن كلها معنى العلامة، وبذلك اقترح بعض الباحثين لفظة سيمياء مقابلا للمصطلحين الفرنسي والإنجليزي، لاسيما أن صيغته الصرفية ليست غريبة عن صيغة أسامي العلوم في العربية، كاستعمال لفظة الكيمياء للدلالة على علم المادة والفيزياء للدلالة على علم الطبيعة، لكن خوف اللبس دفع بعض الدارسين إلى

استعمال اللفظة في صيغة الجمع "سيميائيات" وذلك لتنصرف دلالتها إلى العلم مثلما هو الشأن مع رياضيات وطبيعيات"[7]

2. تاريخ السيميولوجيا:

تاريخ السيميولوجيا لم ينشأ مع بيرس ولا مع سوسير. بل تعود بواكيرها إلى الفكر اليوناني القديم مع كل من أفلاطون وأرسطو والرواقيين. إلا أن هذه البداية كانت عبارة عن أفكار متناثرة هنا وهناك، تفتقر إلى إطار نظري تنتظم داخله. ومنذ تلك الفترة، لم يَخْلُ الفكر الإنساني المنطقي والبلاغي من عطاءات واجتهادات في المجال السيميائي.

ولا يمكن أن ننْكر إسهام العرب الأُوَل في هذا المجال. ذلك بأن المتصفح للكتب التراثية والآثار العلمية يلمس –من كثبٍ- عطاءَ المسلمين ومشاركتهم البناءة في السيميائيات. وهكذا، فقد عَرَفها متصوفة الإسلام باسم "السيمياء" أو "علم أسرار الحروف". وفي الإطار عَيْنِه، عالج اللغويون والمَناطِقة القدامى قضية الدلالة باعتبارها النسبة الرابطةَ بين اللفظ والمعنى، أو بين الدال والمدلول بالِاصطلاحات الحديثة. وإذا كان أرسطو قد قسم هذه النسبة إلى نوعين؛ طبيعية (Physei) ووضعية (Thesei) فإن المناطقة العرب ميزوا بين ثلاثة أنواع من النسب: طبيعية وعقلية ووضعية. فأما الدلالة الطبيعية، فهي "دلالة يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة طبيعية ينتقل لأجلها منه إليه"، وأما الدلالة العقلية، فهي "دلالة يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة ذاتية ينتقل لأجلها منه إليه"، وأما الدلالة الوضعية، فهي "دلالة يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة الوضع ينتقل لأجلها منه إليه" [8] ،أي إنها دلالة اصطلاحية قائمة على المواضعة والاتفاق.

ومما ذُكر يتوضح لنا أن العلماء القدامى –عربا وعجما- قد خاضوا في السيميائيات، وتناولوا قضاياها ودرسوا الكثير من مباحثها. ومن هنا، فقد أصبح من الضروري –بغية تطوير النظرية السيميائية وتأصيلها- العودة إلى هذه الاجتهادات بحثا عن الحلول المناسبة للإشكالات السيميائية القائمة. وذلك رغم سذاجة تلك الاجتهادات، وتوزعها بين المظانّ المتعددة، وافتقارها إلى خلفية نظرية واضحة.

غير أن السيميائيات م تعرف انطلاقتها الفعلية القوية إلا مع ، أعمال الفيلسوف المنطقي والرياضي الأمريكي تشالز سندرس بيرس، وكذلك إلى افتراضات العلام اللساني البنيوي السويسري فرديناند دو سوسير، ومن خلال هذا الاختلاف والتنوع في الإبدالين النظريين لكلا الرائدين، نتج اختلافي التصور بين الانتصارالسيميولوجيا الفرنسية التي تعد كما بشر بها دو سوسير في محاضراته في

علم اللسان العام جزءا منعلم النفس العام، وستدرس كل الأشكال غير اللفظية كعلامات المرور ولغة الصم البكم وغيرها.

وهناك من انتصروا للسيميائيات بوصفها دراسة للتجربة الإنسانية كما يراها بيرس، حيث يمكن النظر إلى كل النشاطات الإنسانية من وجهة سيميائية، سواء كانت لعبا أو فيزياء أو رياضيات أو سياسة أو اقتصاد وغيرها، فالسيميائيات إذا نظرية للعلامات خصوصا أن العلامة في التحديد البيرسي، هيكل ما يقوم مقام شيء ما يمثله، ومنه فالكون كله علامة، والسيميائيات دراسة لهذا الكون العلامي، وبالرغم من اهتمام كثير من الباحثين بالتمييز بين هذين المصطلحين، إلا أن غالبهم في الأخير استقر إلى أن التمييز بينهما إجرائي فقط، بل ان المصطلحين معا مترادفان.

انطلقت الجهود المختلفة للباحثين السيميائيين في تطوير هذا العلم، بناءا على التصورين السابقين معا، فقداعتمد الكندي توماس سيبيوك دراسة العلامات استنادا إلى التصور البيرسي لعلم السيميائيات، وأخذ رولان بارث على عاتقه دراسة الأنساق الدالة البصرية اعتمادا على ثنائيات دو سوسير (الدال والمدلول/ التقرير والإيحاء..) خصوصا أنساق الموضة والإشهار، ومختلف المغامرات السيميولوجية، لذلك عرف هذا الاتجاه السيميائي الفرنسي بسيميولوجيا الدلالة، المرتبطة أيضا بكريستيان ميتز، الذي اشتغل على بنية التلفظ في الخطاب السينمائي خصوصا ومختلف تجليات هذا الخطاب، بالنظر إلى اعتباره بنية لفظية.

وهكذا تحاقلت السيميائيات بعلوم دقيقة كالرياضيات والبيولوجيا والفيزياء وعلوم إنسانية كعلم النفس المعرفي واللسانيات، ومنها انفتحت على مجالات متعددة للدراسة تجمع بين الإنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والفينومينولوجيا وغيرها، كما أنها نهلت من علوم متنوعة شتى نوعت من ابدالاتها النظرية كالبلاغة، خصوصا مع جماعة مو البلجيكية وفلسفة اللغة مع رودولف كرناب وبرتراند راسل ولودفينج فيتجنشطاين، والأشكال الرمزية لإرنست كاسيرر، والنظرية التوليدية التحويلية لنعوم تشومسكي والنحو الوظيفي ليسمون ديك واسانيات لفان ديك والشكلانية الروسية مع دراسة الخرافة لفلاديمير بروب ومنطق أرسطو والفلسفة الوضعية المنطقية لجون لوك وليبنتز وغيرهما وتداوليات تشارلز موريس وانثروبولوجيةليفي شتراوس وغيرها.

أغنت هذه الإبدالات النظرية المتعددة المنهج السيميائي في التحليل، وجعلته الأكفعى في دراسة خطابات بالغة التفرد والتنوع والاختلاف، من خلال البحث في الطريقة التي يأتي بها المعنى إلى هذه الخطابات، باعتماد التفكيك المحايث، وإعادة بناء شكل المضمون والمساءلة عبر جهاز مفاهيمي غني، استطاعت من خلاله السيميائيات تحقيق استقلاليتها الذاتية المعرفية محددة بذلك موضوعها في البحث عن تناسل المعنى في كل النشاطات الإنسانية.